المَبحث الثالث

نقد دعاوي المعارضات الفكريَّة المُعاصرة لحديث حديث «إذا سمعتم صياحَ الدِّيَكة .. وإذا سمعتم نهيق الحمار»

المَطلب الأوَّل

سَوْق حديث «إذا سمعتم صياحَ الدِّيَكة .. وإذا سمعتم نهيق الحمار»

عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبي ﷺ قال: «إذا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وإذا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحِمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ من الشَّيْطَانِ، فإنَّه رَأَىٰ شَيْطَانًا» متَّفق عليه[1].

(١) أخرجه البخاري في (ك: بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال، رقم: ٣١٢٧)، ومسلم في (ك: الذكر والدعاء، باب: استحباب الدُّعاء عند صياح الديك، رقم: ٢٧٢٩).

المَطلب الثَّاني
سَوق المعارضات الفكريَّة المعاصرة.. لحديث «إذا سمعتم صياحَ الدِّيَكة»

قد وَلغت في هذا الحديث الشَّريف ألسِنة كثيرٍ مِن أربابِ التَّمعقُل في زمانِنا، وشطحت فيه أقلام مَن ضاعت أعمارُهم في ردمِ ما شيَّدته جهابذة الرِّوايةِ مِن قواعِد وسَنَن؛ حتَّىٰ صار شعارًا عند بعضِ أولاءِ المُحدَثين علىٰ زوغان منهج المُحدِّثين، وتقبُّلهم لمُنكراتِ المتونِ و«ما لا يقبله العقل، وما لا فائدة منها للإسلام والمسلمين»![1].

ترىٰ مثال هذا العارِ مِن الشِّعارِ -مثلًا-:

في ما عنوَن به (جواد عفانة) كتابًا له، تعنَّىٰ فيه ردَّ الصِّحاحِ بقوله: «الإسلام وصِياح الدِّيَكة»! يُعلِّل ذلك في تقدِمَتِه بقوله: «قد قصدتُ بقولي (صياح الدِّيكة) لفتَ نظرِ القارئ الفَطين إلىٰ إحدىٰ الخرافات الَّتي نُظمت في قولٍ نسَبه الرَّاوي إلىٰ رسول الله ﷺ زورًا وكذبًا»[2].

وترجع مُجمل المعارضات الموجَّهة إلىٰ الحديث إلىٰ واحدة رئيسةٍ تتعلَّق بالواقع المُشاهد، وهي:

أنَّ تعليل صِياح الدِّيكة بكونها رأت مَلَكًا، مع تقرُّر أنَّ لكلِّ ابن آدم ملائكةً حَفَظة ومَلَكين يكتبان أعماله: يلزم منه أنْ تصيح الدِّيَكة ليلَ نهار كلَّما رأت

---

(١) بذا حكم نضال عبد القادر علىٰ هذا الحديث في كتابه «هموم مسلم» (ص/١٢٦، ١٢٨).

(٢) «الإسلام وصياح الدِّيك» لعفانة (ص/٦).

إنسانًا! لرؤيتها الملائكةَ مع كلِّ إنسان، وبما أنَّ هذا لا يحدث: فالحديث كذِبٌ علىٰ رسول الله ﷺ؛ لتكذيبِ الواقعِ المحسوسِ له.

هذا ما يتعلَّق بتعليلِ صِياح الدِّيك.

وكذا تعليل نهيق الحِمار برؤيتِه الشَّيطان؛ فإنَّه يُشكل عليه أنَّ المتقرِّر شرعًا أنَّ لكلِّ إنسانٍ شيطانًا مُوكلًا به، وأنَّ الشَّيطان كثير الوَسوسة لبني آدم؛ فلو كانت العِلَّة كما ذكر في الحديث: لوجب أن تنهق الحُمر في الأوقات كلِّها لدىٰ رؤيتها للنَّاس!

بل إذا وُضع الحديث بجانب حديث: «**إذا نُودي للصَّلاة أدبرَ الشَّيطان وَلَهُ ضُرَاطٌ حتىٰ لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ** . .»[1]، مع كثرة ما يصادف وجودَ حمار أو خمير عند المسجد، وحسب حديث المناداة وخروج الشَّيطان له ضراط، وحسب الحديث الآخر: أنَّ الحمار يرىٰ الشَّيطان وينهق عند رؤيته! يلزم منه النَّهيق مع كلِّ أذان وإقامة، فلمَّا انتفىٰ سماعِ نهيقِ الحمارِ حينئذٍ: لزم منه بطلان الحديث.

وفي تقرير هذا الاعتراض يقول (إسماعيل الكردي):

«وَرَد في الحديث استحباب الدُّعاء عند سماع صوت الدِّيك، خاصَّة أن الدِّيك يصيح عند الفجر، فيوقظ النَّاس لصلاة الفجر، ووردَ أنَّ صياح الدِّيك تسبيحه، أمَّا كون صياح الدِّيك سببه أنَّه يرىٰ مَلاكًا: فهذا مِن غرائب المرويَّات عن أبي هريرة ﷺ، ويبدو لي أنَّه إضافة مُدرجة مِن حديث أبي هريرة، ظنَّ الرُّواة أنَّها مرفوعة.

ذلك لأنَّ التَّعليل لسبب صياح الدِّيك يُشكِل عليه: أنَّ القرآن الكريم والحديث نصَّا علىٰ أنَّ لكلِّ ابن آدم ملائكةً حفَظَةً، ومَلَكين يكتبان أعماله، وعليه؛ فالمفروض أن تصيح الدِّيَكة ليلَ نهار كلَّما رأت إنسانًا؛ لأجلِ أنَّها ترىٰ معه أولئك الملائكة، مع أنَّ شيئًا مِن هذا لا يحدث!..

---

(١) أخرجه البخاري في (ك: الأذان، باب: الأذان مثنىٰ مثنىٰ، رقم:٥٨٣)، ومسلم في (ك: الصلاة، باب: فضل الأذان وهروب الشيطان عند سماعه، رقم: ٣٨٩).

وكذلك تعليل نهيقِ الحمار برؤيته لشيطان؛ فإنَّه يُشكل عليه: ما ورد في صحيح الحديث: أنَّ لكل إنسانٍ شيطانًا موكلًا به، ومثله ما جاء في القرآن الكريم مِن وجود القَرين للإنسان . . وقد بيَّن لنا الحقُّ تعالىٰ أنَّ الشَّيطان كثير الوَسوسة للإنسان، وعلَّمنا أن نستعيذ بالله مِن شَرِّ الوسواس الخنَّاس . . . إلخ.

والحاصل أنَّ النَّاس في غالب أحوالهم مُعرَّضون لمحاولات الإضلال مِن قِبَل الشَّيطان ولوساوسه، فلو كان نهيق الحِمار سببه رؤية الشَّيطان: لوَجَب أن تنهق الحمير في الأوقات كلِّها، ولدىٰ رؤيتِها للنَّاس! ويلزم: أنَّه إذا كان الإنسان راكبًا حمارًا، فكلَّما وسوس له الشَّيطان بشيءٍ، وَجب أن ينهق الحمار مِن تحتِه لرؤيتِه الشَّيطان!.

وكذلك يُشكِلُ متن الحديث إذا وضعناه بجانب الحديث الأخير؛ حيث كثيرًا ما يكون حمار أو حمير -في القُرىٰ- علىٰ باب مَسْجد أو قريبًا منه، ثمَّ نرىٰ أنَّ المؤذِّن يؤذِّن، ولكن لا نسمع نهيق الحمار! مع أنَّه مِن المفروض حسب الحديث الأوَّل: أنَّ الشَّيطان خرج مِن المسجد له ضراط، وحسب الحديث الثَّاني: أنَّ الحمار يرىٰ الشَّيطان، وينهق عند رؤيته!»[1].

هذا؛ ولم ينسَ (عفانة) أن يفتِّش لإسناد هذا الحديث عن عِلَّةٍ يُنيط بها ما اكتشفه في المتنِ مِن نكارة، فلم يجِد إلَّا أن يَتَّهم به: عبد الرَّحمن بن هرمز راويه عن أبي هريرة، وحدسُه أنَّه ما سمعه إلَّا مِن كعب الأحبار[2].

---

(١) «نحو تفعيل قواعد نقد الحديث» لإسماعيل كردي (ص/٢٧٦-٢٧٧).

(٢) «الإسلام وصياح الدِّيك» لعفانة (ص/٧٥).

المَطلب الثَّالث
دفعُ دعاوي المعارضاتِ الفكريَّةِ المُعاصرةِ عن حديث «إذا سمعتم صياحَ الدِّيَكة .. وإذا سمعتم نهيق الحمار»

أمَّا عن معارض الحديث فيما يُدَّعىٰ من تكذيب الحسِّ له . . إلخ؛ فقولُنا في دحضِه يَنبَجِسُ مِن عِدَّة وجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّ الحديث قد رواه الأئمَّة، واستهَمَ الشُّراح في بيانِه، فلم يقع لواحدٍ الإدلاءُ بهذا الاعتراض الَّذي اعترض به المعترضون مِن المعاصرين، مع سداد فهومِهم، وذكاء عقولهم، فتفرُّدهم بهذا الاعتراض علىٰ الحديث يُنبئك عن مقدارِ فهمهم في جنبِ فهوم أولئك الأعلام.

الوجه الثَّاني: أنَّ الحديث بتمامِه مِن قول رسول الله ﷺ، ودعوىٰ أنَّ تعليل صياح الدِّيَكة في الحديث هو مِن إدراج أبي هريرة ﵁ -كما ادَّعاه الكرديُّ- أو غَلَط مِن عبد الرَّحمن بن هرمز -كما ادَّعاه عَفانة-: مجرَّد دعوىٰ يُعوزها البرهان، ولم أرَ أحدًا مِن نقَّاد الحديث صرَّح بذلك، مع كونِهم أدقَّ عينًا بِما تصحُّ نسبته لرسول الله ﷺ وما لا يصحُّ.

والمُعترضان إنَّما نَصَبا هذه الدَّعوىٰ الإسناديَّة -فيما يظهر- لِئلَّا يستوحش النَّاظر مِن طعنهما في الحديث، وتكذيبهما له بدعوىٰ مخالفتِه الواقع![1]

---

(١) «دفع دعوىٰ المعارض العقلي» (ص/٧٥٨).

الوجه الثَّالث: أنَّ الحديث أخبرَ عن أمرٍ غَيبيٍّ، لا يَقع للعقل إدراك كُنْهِهِ؛ لعجزِه من جِهة، ولقصورِ الواسطة النَّاقلة للعقلِ -وهي: الحواسُّ- عن تحصُّل هذا الإدراك من جهة أخرىٰ؛ فإذا تحقَّق ذلك، فلا طريق إلىٰ معرفة هذا الغيب إلَّا عن طريق الوحي، وحينئذٍ يجب الإيمان بما أخبر به الصَّادق ﷺ؛ وذلك مِن مقتضيات الإيمان بالرَّسول ﷺ.

وبناءً علىٰ ما قُرِّر، يَتبيَّن لك أنَّ دعوىٰ المعترض أن لو كانت الدِّيَكة تصيح عند رؤيتها للملائكة، مع كون كلِّ إنسان محاطًا بملائكة يحفظونه، ومَلكين يكتبان أعماله؛ للَزِم مِن ذلك أن تصيح كلَّ وقت: هي دعوىٰ باطلة، ذلك:

أنَّ حصول صياح الدِّيَكة عند رؤية مَلَك، وكذا نهيق الحمار عند رؤية شيطان؛ لا يلزم منهما أن يكونا عند رؤيةِ كلِّ مَلَك أو كلِّ شيطان؛ لأنَّ الَّذي أشهدَ كُلًّا منهما لرؤيةِ ما لا يراه البشر: قادرٌ أن يحجُب عن الدِّيَكة رؤيةَ الملائكةِ الحَفَظة والمُوكَّلين بكتابة الأعمال؛ ويحجُبَ عن الحمارِ: قرينَ الإنسان، وهذا القرين نفسُه الَّذي يُدْبِر لِسماعِه الأذَان، فهما نوعٌ واحد[1].

وكما عَلِمنا بدلالة الواقع عدمَ شهودِ الدِّيَكة رؤيةَ كلِّ أنواع الملائكة، وعدمَ شهود الحمير كلَّ أنواع الشَّياطين، فإنَّ في بعض الأحاديث ما يُعلِم بأنَّ هذا الشُّهود لا يقع لها في كلِّ حين، بل هي محصورة في **اللَّيل**.

جاء القيدُ بهذا في رواية أخرىٰ عن أبي هريرة رضي الله عنه رواها الثِّقات[2] بلفظ: «إذا سمعتُم صياحَ الدِّيكة باللَّيلِ؛ فاسألوا الله من فضلِه، فإنَّها رأت ملَكًا، وإذا سمعتُم نهيقَ الحمارِ باللَّيلِ؛ فتعوَّذُوا باللهِ من الشَّيطانِ؛ فإنهُ رأىٰ شيطانًا»[3].

---

(١) بأمارةِ وسوستِه للمُصلِّي في حديث الإدبار بقوله: «.. أُذكُر كذا، اذكُر كذا .. لِمَا لم يَكُنْ يَذكُر..»، وفي هذا التَّذكير منه بأمور تخصُّ المُصلِّي، وتعدادها عليه: أمَارةٌ علىٰ معرفته الكاملةِ بهذا الإنسان ومُتعلَّقاته اليوميَّة، ولا يتمُّ هذا إلَّا باقترانٍ منه وملازمَة.

(٢) انظر «سلسلة الأحاديث الصَّحيحة» للألباني (٧/ ٥٦٠).

(٣) أخرجه النسائي في «السُّنن الكبرىٰ» (ك: عمل اليوم والليلة، باب: ما يقول إذا سمع نهيق الحمير، رقم: ١٠٧١٣)، وأحمد في «المسند» (رقم: ٨٦٧٤)، وقال أحمد شاكر: «إسناده صحيح»

قال الشَّوكاني: «قوله في الحديث الآخر (مِن اللَّيل): يُقيِّد المطلقَ، فتكون الاستعاذة إذا سمِع النُّباح ليلًا لا نهارًا»[1]، وكذلك قال علي القاريُّ (ت١٠١٤هـ) قبله[2]؛ ويكفي في ردِّ تلك الشُّبهة اليتيمة ما سُقناه مِن تلك الحُجَج؛ والحمد لله.

(١) «تحفة الذاكرين» للشوكاني (ص/٢٨٣).

(٢) «مرقاة المفاتيح» (٧/٢٧٦١).